مع قصيدة
(نعمة القرآن)

● وبعد : فأنت مع قصيدة (نعمة القرآن) لشاعرنا الدكتور عمر الجارم أمام قصيدة ذات بناء محكم ولغة سلسة وبيان عربى جميل، وأفكارها تحقق وحدة القصيدة فى تتابعها وتكاملها وقد يحس الشاعر التعبير بالصورة التى اشتمل عليها الخيال الكلى والجزئى ومهر الشاعر فى التعبير عن تجربته فى وصف مشاعره تجاه مكرمة المؤلفة المجاهدة ووصف مجلس أدبها وتسجيل مزاياها وسجاياها، وتشتمل القصيدة على ثلاثة أفكار رئيسية فى إطار الوحدة الفكرية للقصيدة عبر ثلاثة مقاطع يتصدرها المقطع الأول المتضمن براعة استهلال القصيدة فيقول :

أقسمت أنك (نعمة) الأوطان لما أتيت (بنعمة القرآن)
هذا الكتاب أراه معجزة النهى أتُراه تنزيلا من الفرقان؟
بعبارة جعل الوضوح وصولها لعيوننا وعقولنا فى آنِ
وعميق فلسفة وبالغ حكمة وصلتك فى نسب إلى « لقمان »
وجديد أفكار تؤيد قولنا دين الإله أتى لكل زمان
وقَويُّ إقناع وناصع حجة تدع المزعزع ثابت الإيمان
لو أن مَنْ فى غير دينك طالعوا فحواه، ما ظلوا على الأديان
سِفرٌ إذا ما جاء مَنْ قسطه صفر يصير مشبع العرفان
يغنى المطالع عن عديد مراجع صفر الصحائف، صعبة التبيان
لما فرغت من القراءة خلتنى خريج (أزهر) بل من الشيخان

● ونلاحظ من استعراضنا السريع للمقطع الأول من قصيدة « نعمة

القرآن» براعة الشاعر فى استهلال القصيدة بالصورة التى تشدك شدا لمتابعة القصيدة سواء تلقاها المتلقى مستمعا أم قارئا، وهذا لعمرى دليل الجمال والجلال فى الشعر الجيد، وليس الأمر كما يقول بعض فلاسفة العبث المعاصرين، يقولون: لقد تعودنا أن ننصت إلى الشعر طيلة ستة عشر قرنا فلماذا لا نتذوق الشعر بواسطة العين فقط؟ يطالع القارئ القصيدة وكأنه يطالع لوحة فنية يستشف أبعادها ويسبر غورها لاستكشاف دلالاتها بواسطة النظر !!.

– وإن قبلنا بذلك أفقدنا النص الشعرى أبرز ما يميزه من خصال وهو عنصر الإيقاع المستمد من الوزن، وإذا افتقد النص الوزن لم يعد شعرا حتى لقد شاع على ألسنة الناقدين والأدباء والمتأدبين أن «الشعر موسيقى ذات أفكار»، وأمام هذا النفر من أهل هذا التوجه فى التجديد والتطوير أن يعبروا عن أفكارهم فى قوالب فنية أخرى عبر اللغة القصصية والمسرحية والمقالة والخاطرة أو عبر الألوان فى لوحات معبرة وحسبهم المجالات الواسعة للتعبير عن الأفكار بعيدا عن تخريب الشعر الجميل ديوان العرب.

– برع شاعرنا إذن فى استهلال القصيدة مستخدمًا أقصى المهارةالتعبيرية فى الاستئثار بالقارئ عينا وقلبا وأذنا من خلال القسم «أقسمت أنك» وسوق الجناس التام فى لفظ «نعمة» الأوطان و«نعمة» اسم السيدة المؤلفة الأديبة أيضا، والتصريع فى خاتمة شطرى البيت الأول «الأوطان، القرآن»، واقتران النعمة بالأوطان فى الشطر الأول وبالقرآن فى الشطر الثانى إشارة إلى مكان الأوطان فى نفس أهل الإيمان بشريعة القرآن، وتغلب على المقطع عاطفة الإعجاب والتقدير بالكتاب المهدى للشاعر والأدب العالى للمؤلفة، وجاءت المعانى والألفاظ والعبارات والأساليب معبرة عن تلك العاطفة أفضل تعبير – فالكتاب «نعمة القرآن» معجزة النهى، وكأنه تنزيل من الفرقان، وهو يجمع بين وضوح المعنى وعمق الفكرة:

وعميق فلسفة وبالغ حكمة وصلتك فى نسب (إلى لقمان)

– وتبدو فى الأبيات ثقافة الشاعر العربية الإسلامية وتأثره ببلاغة القرآن الكريم فى ألفاظ كثيرة مثل «القرآن – تنزيلا – الفرقان – لقمان – دين الإله – المزعزع ثابت الإيمان – الأديان – التبيان – خريج أزهر»، وقد أغنى الشاعر عن الاستعانة بالصور البيانية والخيال جمال المعنى وقوة الأسلوب وثراء الأبيات بالنغم الظاهر والخفى، وغلبت الأساليب الخبرية للتقرير والمدح، وإن استعان الشاعر ببعض الأساليب الإنشائية من مثل القسم فى البيت الأول والاستفهام التعجبى فى البيت الثانى، وقد جاءت ألفاظ الشاعر عذبة جزلة لا ركاكة فيها ولا ابتذال وخلت من الحوشى الغريب وكانت عذبة (كالطفولة كالأحلام كالصباح الجديد) ووردت المحسنات البديعية قليلة أيضا فى سياقها غير متكلفة كما فى التصريع فى البيت الأول (الأوطان والقرآن)، والتورية فى «نعمة الأوطان» و«نعمة القرآن» والجناس الناقص فى «سفر وصفر» فى البيت الثامن، وحسن التقسيم فى بعض الأشطر مثل «عميق فلسفة» و«بالغ حكمة» قويٌّ إقناع وناصع حجة» وهكذا كان نبوغ الشاعر فى التعبير عن فكرته وعاطفته تجاه مكرمة المؤلفة فى مقطع القصيدة الأول بالبيان العذب الجميل.

فإذا انتقلنا إلى المقطع الثانى نرى الشاعر يرسم صورة بهيجة فى وصف مجلس المؤلفة وهى تمارس نشاطها فى الدعوة إلى الله وإلقاء الدروس الدينية فى مجلسها الذى تؤمه النساء من مختلف الأعمار، وأنت أمام المقطع الصورة ترى نفسك بإزاء لوحة معبرة عبر ارتكاز الشاعر على الصورة الكلية التى تفيض بحيوية الألفاظ التى تضفى الحركة والصوت والهيئة واللون وتحتوى على صور تعتمد على الخيال الجزئى أيضا مما يضفى المزيد من الجمال على هذا المقطع من القصيدة يقول الشاعر:

لله مجلسك، وهل له إلاكِ والمختار من عنوان؟!
يبدو بياضك فيه بدرا ساطعا وترى النجوم عقائلا وغوانى

زادت وضاءتهن حشمة ملبس فى الرأس والأذيال والأردان
إن الحسان هى الغصون، وهل بدا فى الحسن إلا مورق الأغصان
يأتين درسك عاطلات مفاتن ويؤبن منه حاليات جنان
إنا نرى الإيمان - يعمر خافقا أبهى من الياقوت والمرجان
تسقينهن من (الحديث) سلافة و(الذكر) عندك منه ملء دنان
بفصاحة هزت من الأعطاف ما قد فاق عزف مثالث ومثانى
كم شنفت أذانهن مقالة وعطلت من سمع لدى الآذان
هى حكمة العلام، أوهن مسمعا وحباك أقصى قوة الأذهان
والعقل فى الإنسان أول نعمة والجسم يأتى فى المقام الثانى

- أرأيت كيف ساق الشاعر فكرة المقطع الثانى فى وصف مجلس العلم تزينه الأديبة المولفة السيدة نعمت صدقى وتحوطها طالبات العلم والدين؟ فهو مجلس أثار إعجاب وتقدير الشاعر (لله مجلسك الوقور) وهو مجلس (الله والرسول)، للقرآن والسنة، أو (الحديث والذكر) كما عبر فى البيت السابع تبدو فيه الباحثة المعلمة بدرا تحوطه النجوم (عقائلا وغوانى) محتشمات غير متبرجات وقورات غير مبتذلات كاسيات عاريات فكن كالغصون المورقة ونرى الأستاذة تيسر للمستمعات المتأدبات فهم الحديث الشريف وتحبب لهن الدرس القرآنى وتجذبهن إلى دوحته وتغمرهن بأنواره، وبرغم أن المؤلفة المعلمة كانت صماء لا تسمع فإنها «شنفت أذانهن» وذلك من حكمة الله الذى «أوهن مسمعا» وحباها «أقصى قوة الأذهان».

- وبرغم اعتماد الشاعر على التصوير الكلى فى المقطع - فإن الأبيات حفلت ببعض الصور البيانية الجزئية كما فى التشبيه المركب فى البيت الثانى:

يبدو بياضك فيه بدرا ساطعا وترى النجوم عقائلا وغوانى

والتشبيه المركب الممتد الذى اشتمله البيتان الثالث والرابع فى قول الشاعر:

زادت وضاءتهن حشمة ملبس فى الرأس والأذيال والأردان

إن الحسان هى الغصون، وهل بدا فى الحسن إلا مورق الأغصان

وعكست ألفاظ الصورة الكلية بحيويتها ما يدل على اللون فى مثل (بياضك – النجوم – مورق الأغصان – الياقوت والمرجان) ... ومن الألفاظ التى تدل على الحركة (يأتين – ويؤبن – تسقينهن – هزت الأعطاف)، ومن الألفاظ التى تدل على الصوت (الحديث – الذكر – شنفت أذانهن) وغلبت الأساليب الخبرية لتقرير روعة ووقار مجلس العلم وفضله وقلت الإنشائية التى تكررت فى البيتين الأول والرابع من هذا المقطع للتقرير، وجاءت المحسنات البديعية على قلتها معبرة عن عاطفة الشاعر وفكرته لما فى طباق الإيجاب (يأتين ويؤبن) والمقابلة بين شطرى نفس البيت، والمقابلة بين شطرى البيت التاسع، وجاءت بعض أبيات المقطع لتصير حكمة سائرة مثل:

والعقل فى الإنسان أول نعمة والجسم يأتى فى المقام الثانى

● ثم يختتم شاعرنا الطبيب قصيدته بالأبيات الثمانية المتبقية من القصيدة الذى يأتى مجملا لسجايا المؤلفة ويفيض بعاطفة الثناء والأعجاب بجهدها المتواصل فى الدعوة إلى الخير ونشر الفضائل ومن ثم ترد أوصاف شاعرنا لها، فهى أم (الأمين) فى تورية جميلة بين أبنها الدكتور أمين رضا وأم النبى المصطفى (الأمين) وهو يعتبرها أما للصالحين من الناس، ويراها لو عاشت فى عصر (الأمين) ﷺ لكانت من المقربات إلى زوجاته لما متعها الله بالجاه العريض والذكاء الشديد، والبيان العذب والعلم الغزير فلديها (جاه خديجة وثراؤها) و(ذكاء عائشة) و(عذب بيان) فلما التهنئة لما قدمت لأمتها من الخير ونشر دعوة الخير والحق والفضيلة والإسلام والسلام، ولذا يبشرها الشاعر بقوله:

هذا كتابك فى يمينك ناصع نعم الجواز لغرفة بجنان

وهو يثنى على ورعها وتقواها، ولذا يدعو لها بطول العمر لينتفع بفضلها الدين والوطن والحق والخير والجمال فيقول:

لـــم ألـــقَ قبلك مـن رأى بحياته يوم الحساب يجئ قبل أوانِ!
عيشى طويلا، إن مثلك لو أتى فى النـــاس عُدَّ يتيمة الأزمان

● وهكذا قدم لنا الشاعر قصيدته فى بناء محكم النسج – وتوافر لقصيدته برغم حفاظه على قالب النغم العربى الأصيل، توافرت له جدة المعنى ووحدة الفكر والوجدان والاستعانة بالخيال الكلى وإثراء القصيدة بالموسيقى الظاهرية المعتمدة على الوزن والقافية وحسن التقسيم والتصريع والموسيقى الخفية التى ترتكز على إيحاء الألفاظ وجمال التصوير والتعبير وترابط الأفكار وتكاملها والصدق الشعورى، وتوافر التجربة الشعرية والوحدة الفنية ومن ثم دلت القصيدة على شاعر كبير حرىّ بالاهتمام والتقدير، لا يزال ملء السمع والبصر فى عالم الطب والقصيد:

● **المصادر والمراجع:**

١ – الجارم، عمر عبد المحسن (الدكتور)، ديوان (الشعر الواضح)، دار القبس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ (١ ش جواد حسنى، الإبراهيمية، الإسكندرية).

٢ – شبلول، أحمد فضل أصوات من الشعر المعاصر – الطبعة الأولى ١٩٨٤، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية.

٣ – موسى، محجوب، (الشاعر)، دليل إلى علم العروض، مديرية الثقافة بالإسكندرية.

٤ – صحيفة «الأيام» البحرينية، العدد (١٧٨٦) فى ٢٤ يناير سنة ١٩٩٤ ص ١٢.

٥ – صحيفة «المدينة» السعودية ملحق الأربعاء فى: ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٤١٤ هـ.

٦ – صحيفة (أخبار الأدب) المصرية العدد (٢٥) فى ٢ من يناير سنة ١٩٩٤ ص ١٩.